

الاستعداد للحرب

لم يعد الشاب عمرو بن قمية إلى دار الأمير حنا بعد أن فارقه في تلك الليلة ذاهباً إلى لقاء أمه تيودورا في قصرها المشرف على الخليج في البر الشرقي من قسطنطينية العظمى؛ وكان امرؤ القيس منذ غاب صديقه لا يجد لذة في طعام ولا في شراب ولا في سمر، وقد أحس كآبة سوداء تشمل قلبه، وتتغلغل في أعماقه، وجعل يسائل نفسه عما صار إليه أمر ذلك الصديق العزيز، أ يكون قد حل به مكروه مما كانت العاصمة الكبرى تنطوي عليه من الجرائم السوداء؟ لقد سمع حنا وهو يتحدث مع عمرو ويشير إليه في خبث إلى أن الملكة لن تحب أن تراه في وضح النهار، وسمع سخريته إذ قال له: «أتظن أنها كانت تستقبلك بين الجموع وتقول هذا ولدى» تذكر تلك الأقوال، وزادت مخاوفه على صاحبه لأنه استطاع في أثناء إقامته في جوار الأمير حنا أن يستشف ما وراء مظهره البراق الخلاب، استطاع أن ينفذ إلى حقيقته من خلال أقواله وحركاته في صحوه وفي سكره، وعرف أنه رجل مخيف، لا يتردد في شيء، ولا يعجز عن الإقدام على شيء.

فهل كان يبعد على مثله أن يتخذ من صديقه المسكين وسيلة يصل بها إلى مطامعه؟ ولقد سمع الشيء الكثير عن تيودورا. إنها كانت

تدبر خطط القتل والإيقاع والأسر، لا تنام عن عداوة، ولا تنكص عن اقتحام المهالك في سبيل ما عقدت عليه عزمها من كيد أو انتقام؛ ألا تكون هذه المرأة القاسية قد ضحت بصديقة المسكين في سبيل إخراس الألسنة عنها؟ لقد كان صديقه ولدها حقاً؛ ولكن لكم من أم قد قتلت ولدها إذا دفعها إلى ذلك حرصها على إخفاء سر لها لا تحب أن يظهر. إنه طالما نصح صديقه بالتريث والاحتراس. بل لقد حدثته نفسه مرة أن يفر معه ويخرجها من تلك العاصمة المخيفة التي لا تحميها فيها قبيلة، ولا يجدان فيها ما اعتاده من حرمة الجوار، ولكن صاحبه كان لا يعبأ بشيء إلا أن يبلغ غرضه الذي أتى إلى مدينة قيصر من أجله، كأن الأقدار كانت تدفعه دفعاً إلى مصير محتوم؛ وها هو ذا قد مضى إلى قصر أمه الملكة في صحبة الأمير حنا، وعاد حنا وحده مرحاً مختلاً كعادته؛ بل لقد كان أكثر مرحاً واختيالاً في تلك الليلة التي عاد فيها وحده بعد زيارته لقصر الملكة، وكان مساءً امرئ القيس له عن صديقه إلا بضحكة ساخرة قائلاً: «لقد وجد أمه فوطن نفسك على المقام وحدك يا صديقي».

ولكن امرأ القيس لم يقنع، وزادت شكوكه يوماً بعد يوم، وعظمت وحشته، وداخله فزع عجيب من المقام في قصر الأمير، إلا أنه لم يعرف لنفسه منصرفاً عنه، فأقبل على الشراب والمجون واللهو، ليغرق فيها مخاوفه وهمومه، فكان لا يصبح إلا على صبح

من الخمر، ثم يقضى يومه مخمورًا، حتى إذا أقبل المساء ذهب
يلتمس سهرة صاحبة ينسى في خمرها وثورتها العنيفة ما كان
يضطرب في قلبه من الوسوس والآلام.

وكان الأمير حنا في شغل شاغل في أثناء هذه المدة، فقد
تغيرت حاله منذ تلك الليلة التي ذهب فيها إلى قصر الملكة مع
عمرو بن قمية، وأصبح اسمه يتردد في أركان القصر الإمبراطوري
وفى مجالس أعيان الدولة، ثم لم يلبث اسمه أن انتقل إلى أفواه
الشعب، واتجهت إليه الأنظار، وهتفت باسمه الجماهير، وأشارت
إليه بنان الجموع المحتشدة أنى سار في أنحاء العاصمة، إذ أصبح
موضع ثقة الإمبراطور والملكة، والمنتظر لقيادة جيوش الدولة في
نضالها العظيم الذى أوشكت أن تبدأ مع دولة كسرى أنوشروان.
ولم يكن عجيبيًا فى قسطنطينية العظمى أن يصبح حنا المنبؤ
بالأمس صاحب الجاه والخطوة اليوم، أو أن ينزوى بازارىوس،
القائد المظفر الذى ارتجت له العاصمة منذ أيام، ويصبح حامل
الذكر عاطلا من جاهه ومجده، قانعًا بظل خافت من أبهته الغابرة،
فهكذا اعتاد الناس صروف المقادير فى عاصمة قيصر.

ولم تخل هذه الحياة الرخوة المخمورة من أن تحدث أثرها فى
امرئ القيس، فقد امتلأ جسمه شحمًا، وتبدل لون وجهه فاكتسى
حمرة كأنها لمعة ثائرة من لهيب ينقد فى جوفه، واسترخى جفناه،
وانتفخت عيناه. وتناقلت حركته، وتباطأت أنفاسه، وتكاسلت

ألفاظه، وزاد على ذلك كله مرض أصابه بقرحة جعل يلتمس لها
الأدهان والأشربة، ولكنه لم يعبأ بها. فإنها لم تكن سوى قرحة
هينة وإن أبطأت عليه في البرء: لم تكن تؤلمه في نومه، ولا تعوقه
عن لهوه، ولا تبدو للنظر في ظاهره، فلم يكن يأبه لها إلا إذا
أفاق في صباحه قبل أن يعود إلى شرابه، فيخلع ثيابه ويدهن
موضعها، ثم يعود إلى شأنه، فلا يذكرها إلا إذا تجرد في الصباح
الذي بعده قبل أن يعود إلى نسيانها في خمر صبوحة.

بسط الصيف رواقه، واختلجت طرق القسطنطينية بالاستعداد
للحملة العظيمة التي عزم قيصر على إنفاذها إلى فارس لكي يحطم
بها ذلك العدو العنيد، كسرى أنوشروان.

لقد كانت الحرب بين الروم والفرس لا تشبه الحروب؛ لم تكن
حرب شعب ضاقت به رقعته فزحف على الأرض التي تليه يريد
أن يستقر وينفسح فيها، بل كانت حرباً تثيرها الكبرياء وشهوة
المجد، والطموح إلى القوة والسلطان؛ كانت تشبه مباريات الفرسان
في حلبة العرض، وما كانت الجموع البشرية التي تساق للموت في
تلك المباريات إلا مطايا الملوك والسادة، يظهرون بها سطوتهم
ومبلغ سلطانهم.

وتم الاستعداد، واجتمع الجيش العرمرم أوفياً مؤلفة من أقاصى
الأرض وأدانيها، يضم بين جناحيه شعوب الشرق والغرب،
وأعدت عدة الحرب من مؤونة وسلاح ودواب وآلات وأموال وزينة،

واجتمع ذلك كله عند ساحل البحر في آسيا الصغرى ينتظر أمر قيصر بالسير نحو الشرق، تحت لواء القائد الياسل الذي اختاره لهذه الحرب، حنا القبادوقى.

وأراد الأمير حنا أن يحتفل قبل السير احتفالاً عظيماً يذكره به أهل العاصمة في مدة غيبته عنهم، فأعد لذلك مسابقة عظيمة في ميدان السباق، فجهز عشرات من العربات للمباراة، واستعد أهل المدينة من الحزبين الأزرق والأخضر للرهان والنضال كعادتهم. وأعد الأمير فوق هذا وليمة في قصره دعا إليها عليّة القوم من قواد ووجوه، وأقبل الليل والقصر يتلألأ بأنواره الساطعة ويموج بألوف من الحراس.

صحا امرؤ القيس من خمرة في عصر يوم الاحتفال، فوجد رسول الأمير في انتظاره يدعوهُ إلى لقائه؛ ولم يخل من الشعور بالدهشة عندما سمع تلك الدعوة، فقد مضى عليه حين طويل لا يكاد يلقاه ولا يكاد يحس بوجوده. فقام امرؤ القيس فاتراً يتمطى ويتئأب وهو يهتز في دوار وغشية، فاغتسل واستعد باللبس والزينة، وعرج على قارورة الخمر فصب منها، فسى كأس كبيرة، وجلس حيناً إليها يتميززها حتى انتهى منها فانتشى بعض النشوة، ودب فيه النشاط، وقام فذهب إلى إيوان الأمير فوجده يتحدث مع بعض زائريه من قواد الجيش، فلما رآه هس إليه وخاطبه بالعربية قائلاً: «لقد اشتقت إلى رؤيتك يا أبا وهب».

فدق قلب امرئ القيس، وأجاب في شيء من الارتباك: «لقد عملت ما أنت فيه من شغل. دام لك المجد».

فأظهر الأمير حنا الارتياح إلى هذه التحية المهذبة، وأشار إليه أن يجلس كأنه يعتذر عن الانصراف عنه ريثما يتم حديثه مع أصحابه. ثم عاد إلى شأنه، وأقبل على القواد في مناقشة ومحاورة، وكان يبدو عليه أنه يريد أن يفرغ منهم مسرعاً حتى يقبل على ضيفه العربي. ولما أتم الحديث معهم قاموا مستأذنين، ولم ينسوا أن يلقوا تحية إلى امرئ القيس فيها كثير من التقدير، كأنهم يريدون بذلك أن يظهرُوا الإكرام للرجل الذي يظهر له من الأمير حنا ما ظهر من المودة والبشر، ولما صار حنا وحده مع امرئ القيس أقبل عليه باسمًا وقال له: «أظن المقام قد تطاول عليك في هذا الخمول. إنك بغير شك قد ظننت بي الظنون لطول صمتي عنك».

فنظر امرؤ القيس إليه في حيرة، ولم يدر كيف يرد جواب قوله. ففي الحق أنه كاد ينسى ما جاء إلى القسطنطينية من أجله، وكاد يألف حياته الجديدة ويستقر عليها، بل إنه قد كاد ينسى أنه إنما يعيش في بيت رجل أجنبي عنه لا حق له عليه في قرابة ولا في جوار. ولما رأى الأمير حنا حيرة صاحبه حملها على أنه لم يفهم قصده من قوله، فعاد إلى الكلام قائلاً: «ولكني كنت في هذه الشهور الماضية لا أجد فراغاً للحديث معك. وكنت أوتر أن أكرم الأمر عنك حتى يتم، وها قد تم أو هو قريب من التمام. وستتحرك

الجيش قريبا إلى فارس، وستكون أنت أميراً في هذا الجيش،
فقد جعلت تحت إمرتك خمسمائة من صفوة الروم، تذهب بهم إلى
الحيرة لتنال ثأرك من عدوك».

وقد بلغت الحماسة من حنا عند ذلك مبلغاً لم يستطع معه
أن يبقى هادئاً في الحديث، فقال وهو يفرك يديه، وجعل يذرع
البهو الفسيح ذاهباً جائباً.

وكان امرؤ القيس ينظر إليه في دهشة عظيمة، وكأنه يسمع
نبأ جديداً لم يسبق له عهد بسبب منه، ولذلك لم يقم ولم يتحرك
ولم يتكلم، بل بقى في مكانه يتبع حركات الرجل في وجل وصمت.
ولم يلتفت حنا في حماسته إلى مظهر امرئ القيس، واستمر
يشرح ويفسر ويوضح كأنه يبسط خطة إلى شريك يجب أن يفضى
إليه بكل ما عنده من أسرارها؛ وأخيراً قال له ناظراً إلى وجهه
فى ارتياح: «والآن أترى أننى قد عوضت كل ما سلف من إغفالى
وانصرافي؟».

فتحرك امرؤ القيس لأول مرة باسمًا، وكأنه قد أدرك عند ذلك
شيئاً من معنى الموقف، فقال: «إننى يا سيدى لا أقدر أن أوفيك
حقتك من الشكر. ولقد كنت فى كل حالاتك معى كريماً نبيلاً».

فتبسم حنا مرتاحاً وصمت لحظة، ثم قال مشيراً بيديه: «سنهبط
على أرض العدو من منافذ الأرض كلها، فلا ندع له أمناً فى ناحية.
سنهبط عليه من الشمال ومن الجنوب ومن الوسط. سنطلع عليه

من الجبل ومن الريف ومن الصحراء سنجتاح بلاده كلها فى وقت واحد كما يجتاح السيل أنحاء السهل».

وأشار بيديه عند ذلك فى حركة سريعة تدل على البت والحسم. وكان امرؤ القيس فى أثناء هذا الحديث قد استطاع أن يدرك حقيقة الأمر تدريجاً، فما انتهى الرجل منه حتى كان قد تذكر كل الحقائق وتمثلها، وأحس ما فيها من خطورة وعاودته ذكريات الماضى سراعاً، وملأت قلبه بشيء يشبه ما كان يملؤه من الحفيظة والأمل والجد، وتصور أنه عائد عما قليل إلى أرض قومه عزيزاً فى كتيبة قوية من فرسان مختارين، وأنه سيذهب إلى عدوه المنذر فى الحيرة فيسطو به، وهو لا يستطيع أن يجد ناصرًا من سيده كسرى الذى تكون الجيوش محدقة به من كل جانب. تصور ذلك كله، وامتلاً قلبه سرورًا وأملًا، وتنفس نفسًا عميقًا وهو يقول لصاحبه: «سيكون قتالًا يثلج الصدر».

وصمت قليلاً ثم قال: «ألا ليت صاحبى معى».

فقال حنا مبادراً: «لن تكون وحدك بغير شك يا أبا الحارث».

فانتفض امرؤ القيس قائلاً: «أويكون معى؟»

فنظر إليه حنا، ولكنه لم يتكلم.

فقال امرؤ القيس مستمراً فى حديثه بحماسة: «أىكون عمرو

معى؟ أما آن له أن يعود؟».

وما كاد حنا يسمع اسم عمرو حتى وجم واعتراه اضطراب شديد كأنما أخذ على غرة فسى أمر لم يكن يتوقعه. ولكنه تمالك نفسه بجهد عظيم بعد فترة صمت غير قصيرة، وحاول أن يظهر قلة الاكتراث فأجاب فى هدوء متكلف: «سيكون معك أعوان صدق من شجعان العرب. سيكون معك الحارث الغسانى وقومه، والطماح الأسمى خرّيت الصحراء».

فوقف امرؤ القيس على قدميه فى كثير من الانزعاج وأجاب بغير تفكير: «الحارث الغسانى؟ والطماح الأسمى؟». فأجاب حنا باسمًا وقد ملك زمام نفسه: «نعم وأظنك تحمد صحبتهما».

فقال امرؤ القيس فى شىء من الجفاء: «وأين أكون منهما، أو أين يكونان منى؟».

ففتح حنا عينيه مظهرًا الدهشة وقال: «لست أفهم ماذا تقصد». فقال امرؤ القيس مع بعض العنف: «أقصد أن أعرف موضعى من هؤلاء؛ لقد كنت أحارب المنذر، أو أسطو بعدوى من بنى أسد، وأنا سيد من معى. أفأكون سيد من معى، إذا سرت اليوم إلى المنذر». فضحك حنا ضحكًا عاليًا حتى استند بيده على ظهر أريكته وهو واقف، ثم نظر إلى امرئ القيس وقال: «لم أفكر فى ذلك الأمر أيها الأمير. إنك تفكر فى أمر الرياسة، ولكننا نفكر فى خطة شاملة لا محل فيها للأفراد، فالكل يتساندون فى سبيل غرض واحد».

وكان امرؤ القيس منذ ضحك حنا قد تبدل مظهره، فاكتسى حمرة شديدة، وظهر الغضب فى عينيه، وتحركت أنفاسه سراعاً، وكاد ينفجر فى غضبة ثائرة كعادته، ولكنه حكم نفسه ولم يسرع إلى الجواب فقد علم أنه فى مكان لا تجديه فيه الغضبة. لقد علمته الإقامة فى العاصمة الرومية أن يكون أملك لنفسه، وأحرص فى قوله؛ فساد الصمت حيناً بعد أن انتهى حنا من كلامه، ثم أجاب امرؤ القيس فى إيجاز وهو يتكلف الهدوء: «هذا تدبير لم يسبق إلى خاطرى».

ثم قال فى فتور بعد صمت يسير: «ولكنه حسن». وكان حنا فى أثناء هذه اللحظات الأخيرة قد عاد إلى مجلسه، وجعل يعبث فى قضيب من الآبنوس المطعم بالفضة، وهو يختلس النظرات بعينيه الزرقاوين من امرئ القيس، كأنه يحاول أن يستشف ما تحت مظهره المتكلف.

ومضت لحظة صمت أخرى. ثم جاء امرؤ القيس فجلس إلى جوار الأمير، وخاطبه فى لهجة التوسل بصوت هادئ كأنه يهمس سراً، فقال: «ولكن أما يذهب عمرو معى؟ أما يعود عمرو معى؟ أما يتاح لى أن أراه قبل سفرى؟».

وكان حنا منذ سمع اسم عمرو قد عاد إلى وجومه وعراه شىء من الاضطراب مرة أخرى، ولكنه تمالك نفسه سريعاً وقال فى صوت ضئيل فيه رنة من القسوة: «دع عمراً يا أبا الحارث. إن شأنه لا يعيننا اليوم. فهو مع أمه العظيمة، وهى أولى بتدبير شأنه».

فقال امرؤ القيس ساهمًا كأنه يتكلم فى حلم: «وهل أعود
بغيره»؟.

فهز حنا رأسه فى هدوء وقال وهو يتعمد الإفلات من نظرات
امرئ القيس: «لعله يلحق بك بعد حين. بل إن أكبر ظنى أنه
سيلحق بك. ولكنه سيسير سير أبناء الملوك فى أتباع ممن ينبغى
له أن يستصحب. فما كان مثله ليتخلف عن هذه الحرب ليجد
فيها مجالاً للمجد والسيادة. ولكن هذا أمر معلق على غير إرادتنا،
وليس لنا أن نتحدث فيه».

ثم أشار بيديه إشارة سريعة كأنه يقول إن هذا آخر القول فى
أمر لا شأن لنا فيه. وعاد إلى الصمت وجلس متجهماً، فاضطر امرؤ
القيس إلى أن ينطوى على نفسه، ويكتفى بمناجاة أشجانه.
وبعد قليل بدأ توافد الضيوف على القصر، وانتهاز الأمير حنا
تلك الفرصة فخف إلى استقبالهم كأنه قد وجد فيهم مخلصاً من
موقفه؛ وجلس امرؤ القيس وحده فى ناحية من الإيوان يفكر،
ولكنه لم يكن يشغل قلبه تفكير فى ثأر أو حرب أو ملك، بل كان
كل قلبه ممتلئاً بصورة واحدة ومعنى واحد، صورة صديقه عمرو
وغيبته الطويلة، وذلك السر العجيب الذى يحيط باختفائه، ثم ذلك
الرجل الرهيب الذى يحدثه عنه بهذا الجمود القاسى. وثارت فى
نفسه شكوك ومخاوف لم يستطع الشراب الكثير الذى شربه تلك
الليلة أن يذهبها عنه.
